مدن عربيّة : ٥

بيروت

يوسف غصوب

بيروت ، هذه المدينة العجيبة . هذه الذراع الممتدة ابدا للاخذ والعطاء. هذه السفينة الراسية ، منذ فجر البشرية ، على هذا الشاطىء الشرقي من البحر الابيض . اذا غشيها الليل وسجا البحر من حولها تألقت اضواؤها وسرت في قلبها وجنباتها همهمة مبهمة كأنما هي تتأهب للاقلاع. فهي تعد عدتها وترفع مرساتها حتى اذا هدأ الليل توهم الناظر اليها من علِ انها على وشك الابحار الى الآفاق والتوغل في الابعاد ، لكنها لا تبرح ولن تبرح . فان هي ابحرت فانما تبحر الى الازمنة الغابرة والعصور السحيقة ، تحدوها اليها اشرعة الذكريات المتراكمة ، الحافلة بالاساطير الراسخة والديانات البائدة والحضارات المتتالية والامجاد العابرة والكوارث الداهمة .

هذه البقعة من الارض كانت ، عندما انحسرت المياه عنها واشرق النور عليها ، جزيرة صغيرة في جوار ساحل ينبسط اليها وهضاب ترمقها وقمم تشرف عليها . فما ان برزت حتى راحت جاراتها تومىء اليها وتناديها ان : « عودي الينا فانت منا ولا حياة لك الا بنا » ، وشفعت الايماء والنداء برياح هاجتها ورمال اثارتها وما انفكت حتى طمرت ما بينها وبين الجزيرة فضمتها اليها واوثقت عراها بها . ثم اهابت بالآلهة التي بنت من قبل جاراتها ، صور وصيدون وجبيل ، ووكلت اليها بناءها . فاجتمعت الآلهة ونظرت اليها وقالت : ما عسانا ان نصنع منها وهي بقعة ضيقة لا تمتد قليلا حتى يرتفع حيالها جبال شامخة ، قائمة حداً فاصلا بينها وبين قفار وسهول تنداح اليها من اقاصي المشرق حتى اذا بلغت سفوحها وقفت عندها ، وبين بحر زاخر يزحف من اقاصي المغرب فاذا دنا منها التطم بها وفتت امواجه على شاطئها ؟

وقالت الآلهة : هذه البقعة الصغيرة واقعة في ارض تكاد تكون غريبة عما يحيط بها ، فما هي بجملتها شرقية ولا هي بجملتها غربية . فقد تجمع بين المتناقضين فلا يلبثان ان يتقاربا ويتجاورا ، وقد ينصهران في بوتقتها العجيبة فينشأ منهما عنصر جديد يختلف اختلافا بيّنا عما حوله من العناصر . ألا تكون الطبيعة قد اعدتها لتجعل منها رقعة فسيفساء متعددة الالوان متباينة الاشكال ؟ على ان الوانها واشكالها لا تتنافر ولا تتصادم بل تنسجم انسجاما

طريفا يتماشى مع وفرة مناظرها وتنوع مواقعها ، حتى انها لتصلح ان تكون سكنا وموطنا لكل من قصدها واقام فيها اياً كان البلد الذي قدم منه ، فانه ولا بد ليجد فيها شيئا من بلده مهما ضؤل ، يأنس به زمنا ثم لا يلبث هو او ابناؤه ان يتحلوا بصفات هذه الارض وخصائصها ويصبحوا من اعلق الناس بها .

وقالت الآلهة : وهذه الجبال الشاهقة سوف تشرف قممها من جهاتها الاربع على شعوب مختلفة ، فهل ينبغي لها ان تكون حاجزا يحول دون لقائها ؟ لا . بل فلتكن جسرا او ممراً قد يؤدي من حين الى حين الى حروب ومعارك طاحنة ، غير ان ذلك لا يمنع ، في ايام السلم ، من تبادل الحضارات وتمازجها ومن تنافس الصناعات وتباريها ومن تقايض السلع والافكار والاسهام في تقدم العلم والمبادىء الانسانية. فلنبن هنا مدينة تكون ملتقى وبندرا ومنارا ومنطلقا الى الشرق والى الغرب وصلة تجمع ما بينهما . ولنجعل من جبالها مقرا امينا وملجأ حصينا للمضطهدين والمظلومين والمشردين ولكل من يطلب الحياة في حرية وطمأنينة .

وبنت الآلهة بيروت* ، فجرت على ما كتبت الآلهة لها ولجوارها منذ رفع اول بناء فيها ، وما تزال حتى الآن تؤدي الرسالة التي اضطلعت بها والدعوة التي انتدبت اليها بالرغم مما توالى عليها من حروب وكوارث وزلازل قوضت اركانها ودكت معالمها وذهبت بآثارها. غير انها كانت في كل مرة تتنفض من رمادها وتستأنف حياة جديدة غير قانطة ولا واهنة ، كأنما هي الطائر الفينيق الذي لا يموت حتى ينبعث حيا.

نشأت بيروت في اول عهدها صغيرة وادعة لا قبل لها بمنافسة العواصم الفينيقية الجبارة ، صور وصيدون وجبيل . فان هذه العواصم كانت تملأ البحار بسفنها وتجارتها وكان لها مستعمرات ومتاجر في اقاصي الارض ودوانيها وكانت صناعتها على ضيق مواطنها لا تباريها فيها اوسع الاقطار واوفرها سكانا وغنى وخصبا . فرأت بيروت ان تتخصص بفرع من فروع الحضارة يكون لها فيه القسط الاوفر بين جاراتها ، فانشأت معاهد العلم واشتهرت بها حتى منذ اوائل العهد الفينيقي ، لكنها لم تبلغ اوجها وشهرتها العالمية الا في العهد الروماني يوم كانت جامعة الحقوق فيها منارا ومرجعا للامبراطورية وقبلة لابنائها

---

* في الاساطير ان الاله ايل الذي بنى جبيل قد بنى بيروت وسميت « بعل بريت » والبعل مرادف للاله . وجاء ايضا ان عشتروت وبيريت اسمان لمسمى واحد هو شجر السرو الذي كان يكثر في بيروت . وقيل انها من لفظة « ابير » الفينيقية ومعناها الشجاع . والمرجح انها جمع لكلمة بئر العبرانية التي تجمع على بئروت وذلك لانها كثيرة الآبار التي ما ضعف شأنها فيها الا منذ عهد قريب . وفي العهد الروماني سميت « يوليا فيلكس » ابنة اوغسطس قيصر لكنها ما لبثت ان استرجعت اسمها وظلت عليه كما ظلت على القيام بالمهمة التي وكلت اليها منذ انشئت .

يؤمونها من كل حدب وصوب ليتفقهوا فيها ويتخصصوا في علم من علومها ليكونوا اهلا لتولي المناصب العالية في المحاكم والمراكز الادارية في العاصمة الرومانية او في مواطنهم . ومن هذه المواطن التي كان جلها خاضعاً للامبراطورية الرومانية او كان جزءا منها : بلاد العرب وارمينيا وآسيا الصغرى وكبدوكيا وكيليكيا ومصر وما بين النهرين واليونان والقفقاز ومكدونيا وغيرها من الاقطار . فكأن جامعات بيروت تعيد اليوم ما كانت عليه في العصور الماضية . فهي الآن كما كانت في الامس ملتقى للطلاب من الاقطار البعيدة والقريبة ، وهي الى ذلك ملتقى للغات الحضارة على اختلافها وتباينها تلقى بها العلوم بلغات مختلفة ، كما كانت تلقى في العهد الروماني باللاتينية واليونانية الى جانب لغة اهل البلاد . هذا ولا نرى من حاجة الى التوغل في الماضي لتوكيد الطابع العلمي والتجاري والصناعي الذي اتسم به هذا البلد ، ولا للاسهاب في تاريخ حضارته التي ترجع الى الآلاف من السنين ، ولا لذكر الاحداث المتراكمة التي تعاقبت على هذه البقعة الضيقة حتى لكأن ترابها من رفات من رقدوا فيها . انما نحاول ، ما امكن ، ان نعطي صورة صادقة عما صارت اليه بيروت في ايامنا هذه بعد ما توالى عليها من خفض ورفع وتدمير وبناء وانحطاط ونهوض وما نأمل ان تصير اليه في مستقبل حياتها .

لخمسين سنة خلت كانت بيروت بالنظر الى ما جاورها من المدن القائمة على الشواطىء اللبنانية ، مدينة ذات شأن لاتساع تجارتها واتصالها بالاقطار المجاورة لها وبالبلدان الاجنبية ولتقدم الحياة الاجتماعية فيها ونشاطها في العلم والثقافة والصحافة ولكونها بابا للشرق الادنى ومرفأ تؤمه وتمر به السفن والبواخر من مختلف الانحاء . وكانت ، الى ذلك ، مركزا للولاية ومقاماً لقناصل الدول ووسطاً من الاوساط السياسية والادبية تتجه اليه الانظار في كثير من الشؤون الوطنية . وكانت رقعتها تمتد حتى حدود المتصرفية اللبنانية ، غير ان عدد سكانها ما كان يتجاوز عندئذ الخمسين الفاً يقطن معظمهم ضمن حلقة لا تبعد دائرتها كثيرا عن سور قديم عفت آثاره كما عفت آثار ابوابه التي لم يبقَ منها الا اسماء لغير مسمى ، كباب ادريس وباب الدركة وباب السراي الخ . وفي منطقة ضيقة من هذه الدائرة كانت الاسواق التجارية ومكاتب الشركات والمصارف والدوائر الحكومية وبعض بيوت متلازة تكاد سطوح بعضها تتماس او تطل على ممرات و أزقة معقودة او سراديب لا ينفذ اليها النور الا قليلا . غير ان هذه الابنية قد بدأت تتوارى منذ اليوم الذي امر فيه عزمي بك ، والي بيروت اثناء الحرب العالمية الاولى ، بهدم ما كان ممتدا منها في خط مستقيم بين المرفأ و «التياترو الكبير» لشق شارع عريض تتنفس به رئتا المدينة . لكنه لم يكتب له ان يرى هذا الشارع الذي لولا الحرب والحكم العرفي لكان من الصعب

شقه . وتولى انجاز الشارع من جاء بعده من الحكام ، كما تولى اهل المدينة واولياء الامر فيها متابعة الهدم والبناء وشق الطرقات ، حتى ذهب القسم الاوفر من ابنية هذه المنطقة وقام مكانه ابنية وشوارع جديدة ، وظل شاهدا على الماضي بعض اسواق وابنية تخبر بما كانت عليه المدينة القديمة قبل خمسين سنة . على ان ما بقي منها هو افضل مما ذهب . ومن هذه البقايا الجوامع والكنائس وسوق سرسق وسوق الصاغة واسواق تحيط بمحلة النورية وسوق الطويلة والاسواق المجاورة لها . ولم يكن في هذه المنطقة حديقة او فسحة ، حتى امام الجوامع والكنائس . وما تزال هذه المعابد على ما كانت عليه ، تحف بها الابنية والحوانيت حتى الجديدة منها بدون منفذ لائق بها .

ولم يكن وقتئذ من ساحة تذكر الا ساحة البرج ، وهي قائمة خارج سور المدينة القديمة وتعرف الآن بساحة الشهداء . اما اسمها الاول فبالنسبة الى برج في سور كان يشتمل على بعض المدافع ولذلك اطلق عليه بالفرنسية «مقر المدافع» . اما الاسم الثاني فذكرى لشهداء الوطنية الذين نصب الاتراك مشانقهم في تلك الساحة ابان الحرب العالمية الاولى . غير ان هذا المكان لم يصبح ساحة الا بعد تدمير ما كان عليه من حدائق واسطبلات وثكنات تحف بقصر للامير فخر الدين المعني .

كانت هذه الساحة في بدء امرها حديقة منبسطة امام سراي الحكومة ، غرست فيها اشجار زينة مختلفة الانواع واحيطت لصيانتها بحاجز من قضبان الحديد . وما ان تم انشاؤها حتى بنيت حواليها او على مقربة منها المطاعم والملاهي والفنادق والحوانيت ، وحتى بيوت للبغاء وخانات للعربات والدواب اعدت فيها غرف لنزول الغرباء وللقادمين من الجبل . فكانت هذه الساحة ملتقى ومحط رحال ، ثم ما لبثت ان اصبحت محورا لمدينة جديدة اخذت احياؤها تمتد من جميع جهاتها وتتفرع منها الطرقات الى الجبل والى سوريا والى المنطقة الجنوبية من ولاية بيروت . وعلى جنبات هذه الطرقات قامت ابنية جديدة معظمها للسكن تزداد تفرقاً كلما ابتعدت عن المحور . اما الاراضي التي تبعد قليلا عن المحور ، اي ساحة البرج ، ولا تطل مباشرة على الطرقات العامة ، فكانت المنازل فيها قليلة بل كان معظمها بوراً او رمالا او بساتين من زيتون وتوت واشجار فاكهة يصونها في الغالب اسيجة من الصبار . ويشذ عن ذلك بعض احياء شيدت فيها دور فخمة لاغنياء المدينة محاطة بحدائق غناء . وقد يكون سكانها من اسرة واحدة اطلق اسمهم على الحي الذي يقيمون فيه (كحي السراسقة مثلا) ، وقل ان تبنى هذه الدور على طراز شرقي او عربي بل يستوحى طرازها من ابنية غربية ، لا سيما الايطالية . اما سائر ابنية المدينة وعلى الاخص ابنية بيروت القديمة فكادت تكون على نسق واحد لا تعلو اكثر من طبقتين او ثلاث طباق ، ما عدا بعض ابنية تعد حديثة بالنسبة الى ذلك الزمن قد رفعت على اطراف

المدينة القديمة او في جوارها ـ ومنها ما لا يزال قائماً حتى الآن، كخان انطون بك و خان ثابت والسراي الكبرى التي كانت ثكنة للأتراك . كل هذا خارج المنطقة التجارية ، او قل خارج السور القديم الذي قامت مكانه عندئذ حدود جديدة للمدينة بعد اتساعها تمثّل بحلقة من المقابر المحيطة بها ، كمقبرة الزيتونة ومقبرة الباشورة ومقابر رأس النبع ومقبرة مار متر ومقبرة مار ميخائيل ومقبرة المدور ومقبرة الخارجية (والمقبرتان الاخيرتان قد زالتا ويفكر اولياء الامر في نقل مقابر اخرى) . وتمثل ايضا تلك الحدود التي اصبحت الآن قديمة بالمدارس الكبيرة التي بنيت وقتئذ غير بعيد عن المحور ، كمدرسة الصنائع ومدرسة البطريركية ومدرسة حاووز الولاية ومدرسة القديس يوسف لليسوعيين ومدرسة زهرة الاحسان ومدرسة الحكمة الخ .

لم نتمادَ في هذا الوصف الا للمقابلة بين ما كانت عليه بيروت قبل خمسين سنة وما صارت اليه الآن. فلو ان لبنانيا هاجر في ذلك الزمن وعاد اليوم الى بيروت لتنكرت له وحار منها في امره وحسب نفسه في بلد غير البلد الذي عرفه من قبل. فانه اذا قدم اليها بطريق الجو واشرف من الطائرة عليها ورأى ضخامتها ثم حط في مطارها الدولي دهش منها ومن عظمة هذا المطار واتساع رقعته واتقان هندسته ووفرة معداته ومنظماته وازدحام الطائرات القادمة اليه من اقاصي الارض ودوانيها على اختلاف الشركات والدول التي تنتمي اليها ، وعجب للحركة المستمرة في قاعاته وعلى شرفاته والوجوه واللغات والملابس والازياء التي تلتقي فيه. وما ان يخرج منه حتى يرى ارتال السيارات تملأ ساحاته ويرى انها من اتقن ما وصل اليه الفن في صنعها واحدث ما اخرجت المعامل منها، فلا يتمالك عن مقابلة هذا المطار بالمطارات التي مر بها في عودته فيوقن ان مطار خلدة لا يقل فخامة وعظمة عن افضلها ويفوق الكثير منها ويعجب ويزيد عجبه كلما تقدمت السيارة التي ركبها في الجادة الواسعة المؤدية الى المدينة ورأى ما على جوانبها من دور وقصور وحدائق تملأ العين وتبهر القلب. وقد يلحظ منه ذلك سائق السيارة فيغريه بجولة على شاطىء البحر قبل ولوج المدينة ، فلا يتردد في القبول ، ويشاهد عندئذ ما لم يخطر قط على باله في غربته من ابنية عظيمة حديثة تزدهي بالوان زاهية وهندسات غريبة وتمتد على مدى واسع وتشرف جميعها على البحر الازرق الذي يأنس بها وتأنس به، وفيها الفنادق والمساكن الفخمة والمقاهي والمغاني والمطاعم والاندية . فيسأل نفسه : أهنا كانت الرمال والاراضي البور واشجار الصبير ام انا حالم في يقظتي ام هذا سراب لا يلبث ان يتلاشى ؟

هذا ، اما اذا آب المهاجر على ظهر باخرة فاول ما يتبادر الى ذهنه رؤية المرفأ الصغير الذي ابحر منه . لكن ما ان يدنو من الشاطىء حتى يطل على مرفأ عظيم انجز بعضه

وبعضه قيد الانجاز ،وهو يشغل جملة ما كان فرضة بين الحجر الصحي (الكرنتينا) والمرفأ الصغير القديم . ويرى تجاه الرصيف الخارجي بواخر عديدة تنتظر ساعة يخلو لها مكان في داخل المرفأ ، واذا دخلت باخرته المرفأ ، رأى بواخر اخرى مثلها وبواخر عظيمة للسياحة وبواخر منصرفة الى تفريغ ما جاءت به او شحن ما تستقله . ورأى في احواض المرفأ وعلى ارصفته وساحاته آلات ومعدات ومواعين ومستودعات لا تحصى ، مما يدل دلالة بينة على اتساع حركة الواردات والصادرات فيه . اما المرفأ القديم فلا يتبينه او يحسب انه قد طمر . ولدى نزوله الى البر تشتبه عليه المعالم ، فيفتش عن الازقة والممرات الوسخة التي كان ينفذ منها الى قلب المدينة فلا يجد لها اثرا ، بل يدخل المدينة في شارع رحب انيق تتتابع فيه السيارات بين ابنية فخمة مهيبة فيها مصارف دولية ووطنية ووكالات للشركات التجارية وللاسفار والسياحة وحوانيت في واجهاتها البلورية معارض لافخر الثياب والانسجة والطرائف مصففة ومرتبة على اسلم ما يكون من الذوق والفن ، والارصفة امامها تغص بالمارة من نساء واحداث ورجال باثواب لائقة ، وتخطر فيها بعض المتأنقات في احدث الازياء الاوربية. فيظل المهاجر العائد مشدوها يفتش عبثا عن السراويل والقنابيز والملايات والاضمرة التي كان يألفها قبل هجرته ، فلا يرى منها شيئا . ويزيد اعجابه وعجبه كلما تقدم في المدينة واطلع على جديد فيها. واذا وصل ساحة البرج بهت لتغيرها وافتقد السراي التي طالما تهيبها في حداثته والوحول والحفر التي طالما تعثر فيها فرأى مكانها صرحا بل صروحاً عديدة تتوالى ما تمادى النظر. لكن مالنا والاسهاب فيما يفاجيء المهاجر لدى عودته ، فان البيروتي نفسه اذا مر في حي مضى عليه مدة لم يمر فيه فوجيء بما يذهله من تطور وعمران : فبيروت على تبدل متواصل سواء أكان في مظهرها ام في اتساعها ام في حياتها الاجتماعية .

بيروت لم تكن تعرف لخمسين سنة خلت ما النور الكهربائي ولا ما الهاتف ولا ما السيارات ، وقد اصبحت الآن تشع بحملتها بالكهرباء وتشع بها ضواحيها والقرى والمدن الجبلية المشرفة عليها وباتت تعج بسيارات يربو عددها على التسعين الفا تجول في اسواقها وشوارعها وممراتها . وتمتد فيها الخطوط الهاتفية الى نحو من ستين الف مشترك . على ان هذه الارقام تتزايد كل يوم حتى تتضاعف في كل خمس سنوات. اما عدد سكانها وسكان ضاحيتها فيقرب الآن من المليون . ولكن ما قولنا « ضاحيتها » ، والضاحية قد اصبحت من صلب المدينة لا يفرقها فارق عنها لاتصال الابنية وامتدادها حتى آخر حدودها. وما يصلح ان نطلق عليه الآن اسم الضواحي انما هو تلك القرى والدساكر بل المدن التي تقع منها على ابعاد متفاوتة قد تبلغ العشرين كيلومترا. فكثير من سكان هذه الضواحي يأتون المدينة في النهار لممارسة اعمالهم فيها ويعودون في المساء الى منازلهم ومنهم من يقضي

قسما وافرا من الليل في المدينة ولا يؤوب الى مقره الا للراحة والنوم .

لكن هذه المدينة (ولا بد من«لكن») ـ لكن هذه المدينة التي اتخذت مهدا لها بقعة من اجمل بقاع الارض والتي كانت توصف في عهدها الروماني « بالكثيرة الجمال » و « البلد الجميل الاعز » و « والبلد الظريف » و « البلدة الكلية الروعة » قد انقلبت في عهدها الحاضر الى مسخ غريب عجيب لا ندري كيف نصفه لنأتي بصورة صادقة عنه : فانه متعدد الصفات ، متناقضها ، يجمع بين الرائع والوادع ، بين الجميل والسمج . وابرز صفاته انه نهم ، جشع ، مفترس ، يلتهم كل ما يقع في متناوله ، فينتفخ ويتضخم ويمتد ويبسط اذرعه وسوقه كيفما اتفق له وينشب مخالبه الفولاذية في كل مكان يحتله ولا يأبه لما ينبت على ظهره من شوك او ورد ولا لما ابتلي به من بثور ودمامل في جوار الطف ما يكون من خطوطه واروع ما يكون من قسماته . ظل على ذلك زمنا واولياء امره في غفلة عنه لقصر نظر منهم او لحداثتهم في الادارة او لعجز عن مجابهة المتنفذين ! ولغير ذلك من اسباب عديدة. وما ان تنبهوا له حتى كان السيف قد سبق العذل ، وبات من الصعب رد هذا المسخ الى حالة طبيعية بعملية جراحية او تجميلية تلين شرايينه وتوسعها وتبتر ما زاد في اعضائه وتقضي على عاهاته وترحب منافذه ، فيسهل تنفسه ويتيسر العيش معه — بل مع هذه المدينة العجيبة ، التي تعددت مشاكلها واعضلت فباتت لها الشغل الشاغل ، لا تحل مشكلة منها حتى تفاجأ بمشاكل اخرى اشد تعقدا واكثر صعوبة ، يقتضي حلها زمنا طويلا ونفقات باهظة كانت المدينة في غنى عنها لو انها تداركتها في حينها .

من هذه المشاكل ضيق الشوارع والممرات لاسيما في المنطقة التجارية ، قلب المدينة ، حيث تنصب السيارات من مختلف احيائها ومن ضواحيها ومن لبنان وخارج لبنان فتزدحم وتعرقل السير وتضايق حتى المشاة فلا يجدون الا بالتعرض للخطر والعناء الكثير مجازا من رصيف الى رصيف . اما سائر المناطق الاخرى فاذا كان الليل اصبحت طرقها وممراتها كاراجات للسيارات تحتلها وتحتل ارصفتها ، هذا اذا كان لها ارصفة ، وما ذلك الا لان معظم الدور والابنية التي انشئت حديثا فيها قل ان تشتمل ، مهما كانت كبيرة شاهقة ، على كاراجات لسيارات سكانها. غير ان هذه الحالة قد لايطول الوقت عليها ، فان السلطات قد اخذت ولو بعد حين تبذل جهودا مرموقة لتحسين الوضع الحالي ، فانها تشق الآن شوارع عريضة تدور حول المنطقة التجارية ومداخل رحبة تؤدي اليها من الجهتين الشرقية والجنوبية حيث لا تهدأ حركة السيارات القادمة من الضواحي ومن الجبل ومن البلدان المجاورة . والى ذلك قد وضعت السلطات قوانين تجبر بها الذين ينشؤون ابنية جديدة على اعدادها بكاراجات لسيارات سكانها. وقد شرعت البلدية في ازالة ما نتأ من الابنية الحديثة

والقديمة على الطرقات والشوارع ، وكانت حتى الآن تتوانى في ازالتها لاسباب لا ندري ما هي . اما المبـاني الكبرى التي انشئت وحالت دون تعريض طريق او دون مدخل فخم لقلب المدينة فقد باتت في اماكنها ارسخ من الجبال الراسية .

ومن القضايا التي غفلت السلطات عن ملافاتها انها تركت للبنائين الحبل على الغارب ، فراحوا يبنون وفاق اذواقهم واهوائهم لا يراعون الموقع ولا المنظر العام ، فجاءت الابنية على ارتفاعات متباينة في الشارع الواحـد وعلى طرازات مختلفة متنافرة لا انسجام فيها ولا توازن — على انها قد تروق وتعجب لو نظر الى كل واحد منها على حدة . ومما يزيد في الطين بلة ان بعض هذه الابنية والدور الانيقة الجميلة تفقد الكثير من قيمتها وجمالهـا لمجاورتها بيـوتا قديمة بشعة متداعية ، او خرائب تتفشى فيهـا الحشرات وتنبت فيها الاعشاب والاشـواك ، ومنها ما يكون مزابل او مستودعات للاقـذار والاوساخ والمياه الآسنة .

ومنها ان هذه المدينة على اتساع رقعتها وكثرة سكانها ووفرة مظاهر الترف والبذخ فيها لا تشتمل على حدائق — بل لا تشتمل على حديقة واحدة كبيرة تكون متنزها في اوقات الفراغ ومقصدا للراحة والتفريج ومكانا امينا يؤمه الاولاد في اوقـات فرصهم ويسرحون فيه ويلعبون تحت رقابة اهلهم ويتنشقون هواء طلقا يجدد من قواهم ونشاطهم ، كما هي الحال في العواصم والمدن الكبيرة . واذا قيل ان هناك حديقة الصنائع وساحة الشهداء وبعض حدائق صغيرة في الشوارع الكبرى فانك لا ترى فيها من الاسباب ما يفي بالغرض الذي نرمي اليه . اما وقد اصبح من المستحيل الآن انشاء حديقة كبيرة في قلب المدينة فهناك في جوارها حديقة اعدتها لها الطبيعة منذ امد بعيد — نعني بها غابة الصنوبر ، التي لم تكتف بان صانت بيروت من الرمال التي كانت تطغى عليها بل جعلت منها مطرفا اخضر وارفا ملقى على منكبيها . فلو رتبت هذه الغـابة ونظمت وشقت منها المسالك وانشئت فيها بحيرة وضمن الامن والراحة فيها لا صبحت خير مآب لاهل المدينة وافضل متنزه لهم . وهناك نهر ، بل ساقية ، اذا اقبل الشتاء فاضت مياهها وعاثت فسادا ، وما ان يطل الصيف حتى تنضب او تستنقع وتأسن وتنتشر منها الروائح الكريهة ويتكاثر فيها البعوض والحشرات وتصبح بؤرة للحميات . فلو حصر هذا النهر ضمن جدران عالية ومهد مجراه وبنيت من على جانبيه ارصفة عريضة تغرس فيها اشجـار ظليلة وشقت على مدى الارصفة جادة عظيمة في وسطها خمائل وازهار لبات هذا النهر من اجمل متنزهات المدينة ولكان منه ومن غابة الصنوبر ومن كورنيش البحر مفخرة لبيروت .

اما الطامة الكبرى التي بليت بهـا العاصمة اللبنانية فتلك المدن التنكية القائمة على مداخلها ، وعلى الاخص المدخل الشرقي منها ، حيث تراكمت الاكواخ وتلازت واحتشد

فيها جماعات متنوعة ممن احتلوا الاراضي على حين غفلة من اصحابها وبنوا فيها ما شاؤوا من مآوٍ بدائية بما تيسر لهم من المواد ، كالتنك وبقايا السيارات والاخشاب والحجارة التي يعثرون عليها ، وما لبثوا حتى اصبحوا الوفا مؤلفة وامتدت اكواخهم حتى اصبحت مدينة قائمة بنفسها او بثرة عظيمة فاضحة في جنب العاصمة التي تزهى بازدهارها وبما فيها من الابنية الفخمة الشاهقة . وحتى الآن ، لم تجد المدينة حلا تتخلص به من هذه البشاعة التي تعكر الى حد بعيد صفاء جمالها . ولا نراها تستطيع الخروج من هذه الورطة في زمن قريب لما يتعرضها من مصاعب لا تحصى .

قد يعجب الغريب عن لبنـان وعن تاريخه وعن طبيعة اهله لهذا التقدم الرائع الذي حققته العاصمة اللبنانية في بلد صغير ليس فيه غنى طبيعي ولا صناعة تذكر . كل مـا هنالك سلسلة جبال ممتدة على شاطىء البحر ، معظمها صخري قاحل ، وسواحل ضيقة لا تتسع الا لزراعة محلية ضئيلة ، وبعض سهول داخلية تكاد لا تفي بحاجات اهاليها . ولا معادن فيها ولا نفط ولا غير ذلك مما تنعم به البلدان العربية الواسعة في هذا الشرق الاوسط . فما هي العوامل التي تضافرت وجعلت من بيروت عاصمة تعد من العواصم الكبرى في العالم ؟ العوامل كثيرة ، تنشط وتتساند كلما تيسرت لهـا الظروف واطمأن لبنان الى استقلاله وحريته وفسح له المجال الى الرقي والازدهار . ومن هذه العوامل مـا يحسب في غيره من البلدان حاجزا وعقبة ، كضيق رقعته وطبيعة ارضه الجبلية وقلة موارده . غير ان هذه العوامل هي التي اثرت في اللبنانيين وكيفتهم وانشأت منهم شعبا نشيطا مغامرا مقداما لا يرى من حياة وبقاء له الا بالصراع المتواصل والانفتاح على العالم واستخدام هذا البحر المنبسط امامه للاتصال بالامم والشعوب وتبادل الخدمات والمنافع معها . فما ان استرجع لبنان استقلاله وسيادته بعد الحرب العالمية الاخـيرة حتى نظر فيما يناسبه من الانظمة ويتماشى وطبيعته وطبيعة سكانه ، فلم يرَ خيرا من نظـام ديمقراطي ينتخب فيه الشعب نوابه مباشرة ليمثلوه وينطقوا بلسانه ويسنوا شرائعه وقوانينه ويدافعوا عنه تجاه السلطة التنفيذية .

لا حكم ديمقراطي صحيح ما لم تطلق فيه حرية القول والرأي في القضايا العامة الخارجية والداخلية التي تهم الدولة والشعب. وهل من طريق اقرب من طريق الصحافة الى الاعراب عما يتردد بين الاهلين وبين طبقاتهم واوساطهم من نزعات ورغبات ومطالب وشكاوى في جميع الشؤون التي لها علاقة بالادارة والاقتصاد والصناعة والتجارة والتربية والاجتماع؟ لذلك نرى العاصمة اللبنانية من اكثر عواصم الدنيا صحافة بالنسبة لعدد سكانها، واكثرها تباينا في الآراء والمذاهب: فكل فئة او جماعة او حزب او نقابة لها جريدة تنطق بلسانها

وتدافع عن نزعاتها وميولها وآرائها في كل ما يجري في البلاد وفي كل ما تأتيه الحكومة القائمة، مما يخلق في هذا الحقل فوضى مستمرة كثيراً ما تربك الحكومة وتودي بها. غير ان هذه الفوضى في ابداء الرأي بملء الحرية هي في لبنان بمثابة متنفس يتنفس به الشعب ويفسح به عما في صدره بدلا من كتمانه وحشده فيه وتضرره به. قد يؤدي هذا التنفس الى ازمات تعمل الحكومة وذوو الشأن على حلها بما يرضي ولو الى حين. وعلى كل حال فان الشعب يعتز ويفخر بانه حر وان له صوتا لا يخشى الجهر به وان هذا الصوت يسمع في كثير من الاحيان.

ومن حسنات هذه الديمقراطية انها ادركت ان لا حياة للبنان بانضوائه على نفسه وان لا بد له من الاتصال بالعالم والانفتاح عليه ليتمكن من العيش، فجعلت منه سوقا حرة وملتقى للاقطار المجاورة وللاقطار البعيدة يتبادل واياها الخدمات والفوائد ويتوسط لها في كل ما يعود عليها بالنفع ولا يلحق به ضررا. وتعزيزا لهذا الوضع اعلنت ان نقدها حر لا حاجز دون انتشاره انى شاء واحتاطت لثبوته بضمانة متينة من الذهب والعملة العالمية الثابتة فبات من اقوى النقود المتداولة. واضافت الى ذلك سرية المصارف، فوثقت السوق المالية والتجارية بهذه التدابير وبالاوضاع الديمقراطية ورسوخها وراحت الاموال تتدفق الى بيروت من كل فج وصوب والشركات والمصارف العالمية تفتح فيها فروعا ووكالات فضلا عما نشأ فيها من المصارف والشركات المحلية. واخذت الدول تتجه نحوها للتعاقد معها بشأن الطيران واتخاذها محطة مركزية في الشرق الاوسط. وعلى اثر هذا التقدم، وبالنظر لطمأنينة العيش في بيروت وامكانيات العمل فيها، نزح اليها قوم كثيرون حملوا معهم ما امكن من رساميلهم واسسوا فيها اعمالا ما لبثت ان ازدهرت بفضل نشاطهم وانصرافهم اليها بكل ما عندهم من خبرة ومواظبة واستقامة.

بيروت هي في الدرجة الاولى مدينة تجارية، لاتصالها بالاسواق العالمية، ولموقعها على البحر المتوسط، ولخبرة تجارها واقدامهم وتيقظهم، ولحرية التجارة فيها، ولاتساع مرفأها وما يشتمل عليه من المعدات والآلات والاجهزة الحديثة التي تساعد على السرعة في العمل. ومن مميزات هذا المرفأ ان فيه منطقة حرة تستودع فيها السلع والبضائع الى ان تباع او ترسل « بالترانزيت » الى بلد آخر. فكل هذه التسهيلات ومعدات النقل الى جميع الجهات تعزز بندر بيروت، التي اصبحت مقصدا يجد فيه كل من امه جميع ما يحتاج اليه غير مضطر الى تكبد الاسفار الى البلدان البعيدة. وزاد في هذه الحركة بعض الصناعات التي نشأت في لبنان ونمت وعرفت في خارجه ففتحت لها الاسواق في البلدان المجاورة. ولا نكران ان النفط الذي تفجرت ينابيعه في هذه القطعة المباركة من الارض، فاثرى اهلها

وخلف فيها البحبوحة والرفاهية ، قد امتـدت روافده الى العاصمة اللبنانية ، فكان من العوامل الكبرى في ازدهارها ونموها والاستعانة بها على انشاء كثير من المشاريع العمرانية والاقتصادية في الاقطار العربية وعلى توسيع العلاقات من اي نوع كانت والتعارف والتفاهم.

وبيروت ايضا مدينة علم وثقافة . ولا عجب ، ففيها اربع جامعات يؤمها الطلاب من لبنان ومن سائر البلدان العربية ومن بعض البلدان الافريقية : وهي الجامعة اللبنانية والجامعة العربية والجامعة الامريكية وجامعة القديس يوسف الفرنسية . وهذه الجامعات لا يقل عدد طلابها عن العشرين الفا يتلقون فيها مختلف العلوم . والى جانب الجامعات كليات ومعاهد عديدة وما يقرب من مائة وخمسين مدرسة ثانوية وابتدائية ، عدا المدارس المنتشرة في ضواحيها ، والبعثات العلمية والثقافية المستقرة فيها او التي تلتئم فيها من حين الى حين . وفيها اندية وروابط وجمعيات ادبية واجتماعية وحزبية وطائفية تكاد لا تحصى عدا ، وفيها عدد وافر من المجلات الادبية والعلمية والفكاهية . وقد لا تخلو ليلة من ليالي بيروت من محاضرة او لقاء ادبي او مأدبة ادبية او احياء ذكرى شاعر او كاتب وطني او عربي او اجنبي .

وفي بيروت ، الى جانب اللغة العربية التي هي لغة البلاد الرسمية والشعبية ، لغات عديدة يتداولها بعض اللبنانيين فيما بينهم وفيما بينهم وبين ابنائها بصورة طبيعية كأنها لغاتهم ـ اخصها الفرنسية والانكليزية . وقد يجري الحديث عن غير وعي بلغتين مختلفتين تتشابك جملها وتتداخل تعابيرهما والفاظها تداخلا غريبا عجيبا يولد من اللغتين لغة ثالثة اشبه بلغة مالطة التي اسهب في وصفها احمد فارس الشدياق يوم اقام في تلك الجزيرة . قد يكون هذا المزج في الحديث بين لغتين مألوفا في كثير من مدن الشرق الاوسط وعلى شواطىء البحر الابيض لاختلاط الشعوب فيها ، غير انه قد بلغ في بيروت ذروته العليا في بعض اوساطها .

في بيروت نحو من ستين مكتبة بين كبيرة وصغيرة ، وفيها من دور النشر والمطابع ما يربو عددها على المائة والعشرين . غير ان هذا الجو الثقافي لا يرافقه ، لسوء الحظ ، انتاج ادبي عربي لبناني يتناسب وما يتدفق عليه من الخارج . فكل ما هنالك عدد ضئيل جدا من المؤلفات الادبية والدواوين ، تصدر في بحر السنة ، ومقالات في المجلات والجرائد. والجدير بالذكر ان المجلات الادبية العديدة في بيروت قلما تنشر لاقلام لبنانية ، بل معظم الكتـّاب فيها من الاقطار العربية المجاورة او البعيدة. والادب في لبنان لا يقوم باود صاحبه. واذا شفع الكاتب اللبناني مهنته الادبية بمهنة اخرى ، كأن يدرس في معهد علمي او يحرر في جريدة او يتولى وظيفة في الدولة ، فـلا تلبث هـذه المهنة الاخيرة ان تتغلب على مهنته الادبية فيتراخى الادب عنده ويتضاءل بل وقد يزول .

ولا يتشبث بـه الا بعض شعراء وكتاب يتحملون مضض العيش في سبيـــله ، وهم قلة . كان للشعر في بيروت مجلة خاصة به ، ظلت تظهر مدى سنوات وتنشر الحديث والطريف من الشعر ، لكن صاحبها اضطر الى حجبها لعجزها عن القيام بنفقاتها. وكانت بعض الصحف الكبرى تكرس في الاسبوع صفحات للادب فقلت هذه الصفحات . وفي سبيل الادب تألفت جمعية تدعى جمعية اصدقاء الكتاب توزع جوائز لا بأس بها على من يفوز كتابه في مباريات تعين الجمعية مواضيعهـا . وبخلاف ذلك الفنانون : فالرسامون والمصورون والنحاتون يتزايد عددهم سنة بعد سنة وتفتح معارضهم في مختلف انحاء المدينة ويقبل عليها الهواة والاغنياء و المتفرجون وكثيرا ما يشترون من معروضاتها .

تطورت الحياة الاجتماعية في بيروت تطورا سريعا تناول كثيرا من طرق العيش والعادات فيها وخلق جوا مؤاتيا سهل معه التآلف والتواصل بين سكانها من وطنيين واجانب . كانت هذه المدينة لعهد قريب منقسمة احياء ، لكل حي منها حدوده ومعالمه ومميزاته حتى في لهجات اهله والفاظهم وتعابيرهم وملابسهم واخلاقهم وعاداتهم . وكان كل حي يضم في الغالب مجموعة من السكان ينتمي جلهم الى طائفة واحدة. وكانت الحياة الليلية خارج المنازل ضئيلة جدا ، فما ان تغشى العتمة المدينة حتى تقفل الاسواق التجارية والحوانيت والحانات وتخف الحركة وتكاد الطرقات تخلو من المارة ولا يبقى مفتوحا الا بعض مقاهٍ في الاحياء لا يتردد اليها الا اهل الحي . ولم تكن في بيروت مغانٍ ومقاهٍ ومطاعم يختلف اليها الناس على تباين مذاهبهم وطبقاتهم ، الا في محلة الزيتونة وساحة الشهداء وبعض اماكن اخرى قليلة. فالاجتماعات العائلية والمآدب والسهرات والاحتفالات بالاعراس والأعياد كان معظمها يقام في البيوت ، وقل ان يدعى اليها اجانب او اناس من ديانة غير ديانة الداعي ، وفي كثير من هذه الاجتماعات لم يكن الرجال يختلطون بالنساء.

اما الآن فقد تبدلت الحال بعد تبدل الحكم وبعد ازدهار المدينة واتساعها وتكاثر سكانها واتقان ابنيتها وانارة طرقها وممراتها وساحاتها . فقد انفتحت الاحياء والطوائف والاوساط بعضها على بعض ، وصارت المدينة جسما واحدا يسأل كل عضو منه عن مجموع اعضائه وعن توافقها وتجاوبها ، مما اضطر اللبنانيين الى التلاقي والتفاوض والتفاهم في سبيل هذا الجسم وفي سبيل الالفة والوئام. وعلى اثر ذلك اخذت الفوارق تتضاءل بين الطوائف المختلفة وتتدانى العادات ويشيع التساهل ويتزايد الاختلاط لاسيما بين الاجيال الطالعة . ومن مظاهر هذا التبدل ان النساء اسهمن فيه اسهاما كثيرا بما ابدين من الاندفاع والجرأة في معاونة الرجال على التخلص من العادات البالية والتقاليد الواهنة التي لا تتفق وروح العصر الحالي، فرحن يجالسن الرجال ويرافقنهم ويترددن الى دور السينما والمسارح والملاهي

والمسابح ، ويؤسسن الجمعيات والاندية ويعقدن الاجتماعات الادبية ، ويبدين رأيهن في في جميع الشؤون والقضايا والمشاكل ، ويشغلن الوظائف في دوائر الحكومة وفي السفارات وفي المتاجر والوكالات والمصارف ، ويمارسن مهنا كانت من قبل مختصة بالرجال كالطب والمحاماة والصحافة والسياسة ، ويرفعن اصواتهن عاليا للمدافعة عن حقوقهن او للمطالبة بها . وبكلمة ، تحررن من قيود عديدة حتى انهن يزاحمن الرجال في كثير من الامور لا سيما التجارة النسائية .

هذا ولا يقتصر التبدل والتغير على الاجتماع والملبس والمشاركة في الشؤون الخاصة والعامة ، بل يتعداه الى التزاور والتواد والتآلف بين الاهلين ، وحتى بينهم وبين الاجانب الذين يقطنون المدينة او يقيمون فيها زمنا او يمرون بها مرورا . فبيروت الآن باتت من المدن « العالمية » ، اي المدن التي تضم بين جنباتها اقواما من مختلف الشعوب والامم والتي تتشابه تشابها كثيرا في عاداتها ومبانيها وفنادقها ومقاهيها وفي حياتها الاجتماعية . فالقادم الى بيروت من احدى هذه المدن لا يشعر بانه انتقل من مكان الى مكان ، وقد يلقى فيها معارف واصدقاء من اهل البلد او من بلد اقامته او من سكان تلك المدن . فان سهولة الاسفار وتقصير المسافات في هذا العصر قد اصبحا من العوامل الفعالة في التواصل والتفاهم وتعزيز الروابط والعلاقات بين الشعوب ، ولا سيما في بلد كبيروت التي جبل اهلها على الاحتفاء بالغريب واكرامه . ولهذا وغير هذا من الاسباب اكتسبت بيروت شهرة واسعة في عالم السياحة والاصطياف والاستجمام . ومما يرغب في الاقبال عليها موقعها على البحر واعتدال مناخها وقربها من المواقع الاثرية والاماكن المقدسة ومن الجبال اللبنانية ذات المناظر الخلابة وتفردها في الشرق الاوسط بما تشتمل عليه من اسباب الراحة ورخاء العيش والملاهي والمغاني وما يمر بها من الاجواق والفرق المسرحية والموسيقية ، حتى ان الغريب او الوطني لا يخشى فيها السأم والضجر بل يتحير في الاختيار كلما اراد ملء فراغه . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان يؤمها الناس من جميع الانحاء ، وعلى الاخص من البلدان العربية الشقيقة التي تجد في لبنان بالاضافة الى كل ذلك روابط وثيقة تجمع بينها وبينه ـ كاللغة والعنصر والتاريخ ووحدة الطموح الى مستقبل عربي باهر .

وهكذا فان بيروت حريصة على متابعة الرسالة التي اضطلعت بها منذ وجدت ، اي ان تكون ابدا يدا ممدودة للاخذ والعطاء ، وملتقى للشرق والغرب ، وموطن وئام وسلام ، ومقراً وممراً للتيارات الحضارية والاجتماعية .